

## مجال الأدب بين مظاهر الشعور

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

—\*—\*—\*—

يرى علماء النفس للشعور مظاهر ثلاثة : فهو تفكير إذا كان بحثاً عن حقائق الوجود لمعرفة أسبابها ، واستنباط قواعدها ، وإدراك ما بين بعضها وبعض من صلة أو تنافر ؛ وهو وجدان إذا صحبه إحساس بالذلة والألم ، فالحب والبغض ، والسرور والحزن ، والرجاء واليأس ، والخوف والغضب ، كلها وجدانات تتصل بالنفس فتحدث بها لذة أو ألم ؛ وهو إرادة إذا حفز المرء إلى العمل ، ودفعه إليه ، كالرغبات والنيات .

وإن بين هذه المظاهر النفسية اتصالاً وثيقاً لا يتأتى منه انفصال واحد عن صاحبه ، وإن كان المظهر الغالب لأحدهما ؛ فمن المحال أن نجد ألمك في أنفسنا من غير أن نبعث عن سببه ونبدل طاقتنا في سبيل إبعاده . ويستحيل أن تفكر في عمل عقلي من غير أن نشعر بارتياح إذا سهل الأمر وانقاد ، وامتداح إذا اعراض والتوى . والأعمال الإرادية يصحبها التفكير والوجدان ، ولا تستعمل بنفسها أبداً .

غير أن الصلة التي تربط هذه المظاهر ببعضها ببعض قد تكون طبيعية ، إذا كانت التجربة نفسها تستدعي هذا الترابط بطريق تداعي الماني ، كما إذا وصل إليك نيا نجاحك مثلاً ، فإن خواطر شتى تفتد إلى نفسك من كل صوب : ما بين سرور وإيهاج بما طفرت به ، وتفكير في الوسائل التي انتهجتها ، فوصلت بك إلى تلك الغاية السعيدة ؛ إلى رغبات وعزمات تصمم عليها ، ويدفعك إليها هذا الظاهر المحبوب ، وبيننا ترى بعض هذه الخواطر واضحاً جلياً للنفس ، يحتل بؤرة الشعور أو الخواشي القريبة منها ، نجد بعضها الآخر غامضاً خفياً لا تكاد تشعر به ،

والجزائر وتونس . كتبت جريدة « الجويش كرونكل » اليهودية في لندن تقول إن يهود شمال أفريقيا يعتقدون بأن كيانهم مرتبط بالأمجاد الفرنسية ، أمام بيع الجامعة العربية !

وفي عالم مضطرب ، وفي شرق يحاول بناء حضارة ومجد أصيل ، يجب أن يعلم أن اليهودية العالمية تشكل أخطر ما يواجهه من شرور . إنه خطر تكرر في أجيال سابقة وثقافات سابقة وفي التاريخ لنا عبرة . ( نيويورك ) عمر هليلج

وتسكون الصلة غير طبيعية إذا لم تكن التجربة مستدعية لها بطريق تداعي الماني ، كما إذا كنت تدرس نظريات الهندسة ، فستمت العمل وتركته فليس بين نظريات الهندسة والسأم من صلة . ليس التفكير الخالص بعيدان للأدب ، وإنما هو صرغع للعلم وحده ، أما الأدب فججاله الإحساس بالحسن الذي يشير في النفس لذة ، أو بالقبح الذي يبعث فيها ألمك ، فالأدب تعبير عن هذا الإحساس ، وتصوير له ، فهو لسان الوجدان وترجانه ، إذا كان العلم لسان التفكير والمبين عنه .

تسمع قول قُرَيْبُط بن أنَيْسَف يعاتب قومه الذين لم ينجدوه ويمدح بني مازن ؛ لأنهم أخذوا بيده ونصروه :

لو كنت من مازن لم تستبج إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا  
إذا لقم بنمري معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لثة لانا  
قوم إذا الشرا بدي ناجذيه لهم طاروا إليه زراقات ووجدانا  
لا يسألون أخام حين يندبهم في الثائبات على ما قال برهانا  
ليكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشرفي شيء وإن هانا  
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا  
كأن ربك لم يخلق الخشيتة سوام من جميع الناس إنسانا  
فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شنوا الإفاضة فرساناً وركباناً

فالشاعر هنا يصور لنا تقمته على قومه ، وازدراءه كثرة عددهم لخورهم وجبنهم ، حتى ليقابلون ظلم ظالمهم بالصفع والغفران ، وإساءة السيئين إليهم بالمغو والإحسان . يلتصمون لضعفهم المماذير ، من الخضوع لتماميم الدين ، فسكان الله لم يخلق غيرهم لخشيتة . أما بنو مازن فهو معجب بإسالتهم وإقدامهم ، يمدحون حمام أن يستباح ، ويجد أعدائهم فيهم خشونة لا تلين ، يسرعون إلى نصرة أخيهام قبل أن يطلبوا منه برهاناً على ما قال ، فلا عجب أن تمنى استبدال قومه بغيرهم .

تحدث الشاعر في تلك القطعة عن إعجابهِ وسخطه ، أي عن إحساسه بالجمال والقبح ، وتبجح في تصويرها ، مستعيناً على ذلك بألوان من الخيال ، تكاد تلمس بها خشونة جانب من نصروه ، وترى بها الشر مكشراً لهم عن أنيابه ، وتبصرهم طائرين لا يلوون على شيء ، ومورداً هذه المناقضات التي ما كان يليق أن تكون ، ومتهكاً بهم تهكاً منها لاذعاً ، ويشمر القاري لهذا الشعر بلذة آثارها فينا بجاحه في التصوير ، وبراعته في التعبير .

بيننا نحن لا نمد من الأدب هذه المقالات العلمية التي تخاطب التفكير وحده ، من غير أن تشرك الوجدان معه .

على أن الأديب قد يستعين بقضايا الفكر على تصوير هذا الإحساس ، كما فعل المتنبي عندما أراد أن يصور حيرته اليائسة من الوصول إلى أن يدرك كنه الحياة ومصير الوجود فقال :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم

إلا على شجب والخلف في الشجب  
فقيل : تخلف نفس المرء سالة وقيل تشرك جسم المرء في العطب  
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أفامه الفكر بين العجز والتعب  
وهنا نجد الطريق ممهداً للحديث عن هدف الأدب ، والحق أننا نقف بهذا الهدف عند حد الإنارة الوجدانية ، فلا نطلب منه أن يمدنا بأفكار صادقة عن الحياة ، ولا أن يثير فينا النزوع إلى الأعمال الصالحة ، أي أنه ليس مهمته التعليم والإصلاح ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن يزودنا بالأفكار ، أو أن يحرك إرادتنا للعمل ، سواء أكان ذلك مقصود الأديب أم غير مقصود ؛ فقد يقف الأدب عند حد الإنارة الوجدانية فحسب ، كما في أدب الطبيعة ، وشعر النزل وكثير من الرائي والرسائل ، والمقالات الماطمية المحضة ، مثل قول البحترى :

أناك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلمها  
وقد نبه النيروز في غسق الدجى أوائل وود كن بالأمس نوّما  
يفتقها برد الندى فكأنه بيت حديثاً كان قبل مكنا  
فن شجر رد الربيع لباسه عليه ، كما نشرت وشياً منمنما  
أحل ، فأبدي للأيون بشاشة وكان تذي للعين إذ كان محرما  
ورق نسيم الريح حتى حسبته يحيى بآنفاس الأجنة نوما  
وقول العشيري :

حننت إلى رياً ونفسك باعدت مزارك من ربا وشمبا كما معا  
فا حسن أن تاتي الأمر طائماً ونجزع أن داعي الصباية أسما  
فقا ودما نجداً ، ومن حل بالحي وقال لنجد عندنا أن يودعا  
بنفسي تلك الأرض ما أطيب اربا

وما أحسن المصطاف والتربصا  
ولما رأيت البشر أعرض دوننا وجات بنات الشوق بمنن ترعا  
بكنت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بمد الحلم أسبلنا معا  
تلفت نحو الحى حتى رجدتني وجمت من الإسماء ليتا وأخدا  
وأذكر أيام الحى ، ثم أنشئ على كبدى من خشية أن تصدعا  
وليست عشيائ الحى برواجع إليك ولكن خل عينيك تدمعا

وقول ابن الرومي برقى ابنه .

بكاؤكما يشق وإن كان لا يجدى  
فجودا فقد أودى نظير كما فتدى  
ألا قاتل الله النابا ورمها  
من القوم حبات القلوب على عمد  
توتخى حمام الموت أوسط صبينى  
فلا كيف اختار واسطة المقد  
على حين شممت الخير من لمحاته  
وأنست من أماله آية الرشد  
طواه الردى عنى فأضحى مزاره  
بمبدأ على قرب ، قريباً على بعد  
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها  
وأخلفت الآمال ما كان من وعد  
لقد قل بين المهدي واللاحد لبته  
فلم ينس عهد المهدي إذ ضم في اللحد  
محمد ، ما شئى تومم سلوة  
أقلى إلا زاد قلبى من الوجد  
أرى أخويك الباقيين كما بهما  
بكونان للاحزان أودى من الزند  
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا  
فؤادى يمثل النار عن غير ما قصد  
فا فهما لى سلوة بل حرارة

يهيجانها دونى وأشقى بها رحدى  
وحيثما يمدنا بمعلومات عن الحياة ، ونظم الكون والمجتمع على شريطة أن يكون ذلك ممتزجاً بشعور الأديب ، وناشطاً عن تجربة شخصية له ، كما ترى ذلك في ألوان الأدب الاجتماعى والسياسى وفى شعر الحكمة كقول زهير :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنم  
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يسقن عنه ويذم  
ومن يجعل المعروف فى غير أهله يمد حده ذماً عليه ويذم  
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم  
ومن يقترب بحسب عدو أصديقه ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّم  
ومهما تسكن عند امرئ من خليفة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم  
اسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم  
وقول المتنبي :

إذا أنت أكرمت الكرمين ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا  
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلم  
مضر كوضع الحيف فى موضع الندى  
وما قتل الأحرار كالمفوق عنهم  
ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا  
وقيدت نفسي فى ذراك عجة  
ومن وجد الإحسان قيماً تقيدا  
وقوله :

إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيسالا

وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم وعانقوا المجد من أوفى ومن صبرا  
لا تحسب المجد تمراً أنت آكله ان تبلغ المجد حتى تلعق العصبرا  
وأكثر ما يحرك الأدب الإرادة من غير ان يأمرها بذلك ،  
كما في الروايات التمثيلية الخلقية والاجتماعية ، وكما في كثير من  
الشعر ، وربما كان هذا هو ما حدا الأقدمين إلى أن يوسّروا أولادهم  
بمخاطبة ودراسته ؛ بل ربما كان هو الذي لظهوره عندما وضعوا  
لهذا اللون من القول الجليل اسم الأدب . قال معاوية لابنه :  
« يا بني ، ارو الشعر وتخلق به ، فلفد همت يوم صفين بالفرار صرات  
فاردني عن ذلك إلا قول ابن الإطناية :

أبت لي همتي ، وأبى بلأبي وأخذني الحد بالثمن الربيع  
وإقداي على المكروه نفسي وضربني هامة البطل الشيخ  
وقول كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تسبريحي  
لأدفع عن مكارم صالحات وأحمي بدد عن عرض صحيح  
وأنت ترى الشعر نفسه لا يطالب إقداماً ، ولا يبحث على ثبات ،  
ولكنه حديث عن هذا النزاع الذي دار بنفسه قاله ، وهو في  
ميدان القتال ، وكيف استطاع أن يثبت في هذا الميدان ، يحمله  
على الثبات ماض مليء بالجهاد ، وهمة تأبي التقيصة ، وفلب موكل  
باكتساب المجد ، ونفس اعتادت الإقدام على الكاره ، وضرب  
هانات الأبطال دفاعاً عن مآثره ، وحماية امرئه . وليس في الشعر  
سوى هذا ، ولكن معاوية رأى في صاحبه بطلاً جديراً بالافتداء  
وبما قدمناه يتبين أن هذا الخلاف على أن الإصلاح الاجتماعي  
من أهداف الأدب خلاف ظاهره ، يزيله تحديد معنى الأدب ،  
وتحديد مجاله ، أما وقد قلنا : إن كل ما في الحياة يصلح أن يكون  
موضوعاً للأدب ؛ على أن يتناول من ناحية إخساس الأديب  
بما فيه من جمال أو قبح ، فلاضير على الأديب إذا أن يتناول مسألة  
خلفية أو اجتماعية بما لها ، أو أن يدعو إلى فضيلة أو ينهى عن  
مأثم ، على شريطة أن يكون ذلك من تجاربه ، وأن يثير فينا  
الوجدان ، فيرضى فنعلم ، أو يكره فنكتف .

الأديب حر في أن يتناول ما يشاء من تجاربه ، من غير أن  
نضع له خطة ينتهجها ، وكل ما نطالبه به أن يرسم لنا شعوره ؛  
ولذا ترى من الأدباء من أحس بجمال المشورة فدحها ، كبشار بن  
رد إذ قال :  
إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأى نصيحة حازم

من أطاق التماس شيء وغلاباً واقتساراً لم يلتصمه سؤالا  
كل غاد للحاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرنبالا  
وتديماً عدوا حسن إيراد الحججة من البلاغة ، وضربوا بذلك  
المثل بقوله تعالى : « وضرب انا مثلاً ونسى خلقه ، قال من يحيى  
العظام وهي رميم ؟ ! فل : بحيمها الذي أنشأها أول مرة ، وهو  
بكل خالق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا  
أنتم منه توقدون ، أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر  
على أن يخلق عظامهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا  
أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون ؛ فسبحان الذي بيده  
ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

وحيثما يثير الأدب فينا الإرادة ، ويدفعنا إلى العمل . وأظهر  
ما يتجلى ذلك في الخطابة ، فإنها كثيراً ما ترى إلى إثارة التفكير  
المصحوب بالوجدان والتبوع بالمعمل كخطبة عبد الله بن طاهر في  
جندته ، وقد تجهز لقتال الخوارج : « إنكم فئة الله ، المجاهدون  
عن حقه ، الذائبون عن دينه ، الذائدون عن محاربه ، الداعون إلى  
ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة أمره ، الذين جعلهم  
رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ،  
بمجاهدة عدوه ، وأهل معصيته ، الذين أرشدوا وتمردوا ، وشقوا  
عصا الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، وصرفوا من الدين ، وسعوا في  
الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله  
ينصركم ويثبت أقدامكم » فليكن الصبر معكم الذي إليه تلجئون  
وعدتكم التي بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع الذي دللكم الله  
عليه ، والجنة الحصينة التي أمركم الله بلباسها . غضوا أبصاركم ،  
وأخفتوا أصواتكم في مصافكم ، وامضوا قدماً على بصائرهم ،  
فأرغبين إلى ذكر الله والاستمانة به ، كما أمركم الله ، فإنه يقول :  
« إذا اتيمم فئة فاقبوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .  
أيدكم الله بمنزلة الصبر ، ووايكم بالحياطة والنصر » .

فأنت تراه قد أثار وجدانهم ، بما عرضه عليهم من الأفكار  
ليدفعهم إلى الجهاد :

وكما في الآيات القرآنية التي ترى إلى تحريك الإرادة مثل  
قوله سبحانه : « ولا تتوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي  
أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » وكقول الشاعر  
دببت للمجد والساعون قد بلغوا جهداً النفوس وأنفوادونه الأزرار